

المثقف العربي بين واقع الاستشراق وحلم الاستغراب

بقلم د/البخاري
حمانه

واقع الاستشراق

لا يزال المثقف العربي و الإسلامي ، على حد سواء ، مستقطبين مثل أسلافهما ، خاصة في القرنين الماضيين ، بظاهرة الاستشراق . ذلك ما تؤكد على أي حال العديد من الكتابات والمكتبات العربية والإسلامية التي لا تزال تخصص، ومنذ بداية القرن المنصرم ، على وجه التحديد وإلى اليوم ، لهذه الظاهرة ، والتي لا نعتقد أن ملتقانا هذا سيكون آخرها . وإذا كان البعض قد قول أن مثل هذا الإستقطاب أمر طبيعي، فالغرب الأوربي يستقطبنا اليوم بثقافته وعلومه وحضارته مثلما استقطبناه بالأمس، بثقافتنا وعلومنا وبحضارتنا.. ونحن نتعلمد عليه اليوم بالتالي مثلما تتلمد علينا بالأمس، فإن هذا صحيح مبدئيا.. ولكن الحقيقة تظل في النهاية أبعد من ذلك.

فالغرب تتلمد علينا بالأمس فعلا.. ولكنه سرعان ما تجاوزنا وتجاوز ثقافتنا وعلومنا وحضارتنا ليحولنا في أقل من ثلاث قرون ، لا إلى تلاميذ نجباء مثلما كان، بل إلى تابعين له و لكل إنجازاته الثقافية والعلمية والحضارية والاقتصادية - السياسية.... الخ .

ولأن الاستشراق ليس في النهاية سوى واحد من بين إفرازات عديدة أخرى، أكبر وأخطر ، لتلمذتنا تلك على الغرب الأوربي ، فانه قد امتد بالتالي ، ومنذ تلك التلمذة ، في الذات .. وفي العقلية العربية والإسلامية امتدادا جعله لا يتمظهر أو يتحدد في النهاية من خلال تلك الذات إلا لكي يرسخ فيها، وعلى وقع تقدمه العلمي المذهل ، تلك الصورة التي نبح في رسمها لها .. والتي تدينها .. ولكنها لا تستطيع إنكار الكثير من ملاحظها ، صورة حولتها بالتالي إلى أسيرة لهذا الاستشراق والى عاشقة له في الوقت ذاته⁽¹⁾.

بذلك تحول الغرب لدينا إلى نموذج نمقته ونمقت نزعته العدائية الاستعلائية التمرركزية⁽²⁾، ولكننا نعجب به وبإنجازاته العلمية والتقنية ، في نفس الوقت، نموذج متحرك ومتجدد باستمرار.. تجددا لا يوهنا أننا قد أمسكنا، أخيرا به ، إلا لكي يكشف لنا أنه قد أصبح منا أكثر بعدا ..

وبذلك أيضا تحولت كل مقاربة عربية و إسلامية للغرب الأوربي عامة ، وللإستشراق خاصة ، وهو الذي يعيننا هنا ، إلى مقاربة معكوسة للذات ، ذاتنا الباحثة عن تأكيد نفسها ، وسط تمزقها ذاك بين هاجس الأصالة .. والتحديات المتعددة والمتجددة لتلك الحداثة الأوربية الغربية .

وبذلك أخيرا ، انقلب كل جدل حول الإستشراق إلى جدل حول ذاتنا العربية الإسلامية المعاصرة داخل أسوار ذلك الإستشراق .. والتائهة وسط مفاهيمه و طروحاته ومناهجه وأهدافه ...

من هنا سرّ ذلك التخبط الذي لا تزال تعرفه الدراسات العربية والإسلامية

للإستشراق.

ومن هنا كذلك تلك السجلات حوله .. وحول تعريفه ، أو مفهومه ،
ومضمونه .. و أهدافه .

1_ تعريف الاستشراق :

فعلى مستوى التعريف لا يزال الاستشراق يبحث ، نتيجة لتماهيمه ذاك
مع الذات العربية والإسلامية، عن تعريف يلتقي عنده كل الباحثين العرب
والمسلمين على اختلاف منطلقاتهم الإيديولوجية ...

و لأن كل تعريف إنما هو تحديد ، ولأن التحديد لا يكون إلا في الزمان
والمكان ، فإن الاستشراق ، باعتباره من جهة أقرب إلى المصطلح (الفولكلوري) منه
إلى المصطلح العلمي⁽³⁾، وباعتباره من جهة أخرى ، وليد عوامل متعددة ومختلفة
زمانا ومكانا ، فإن كل محاولة لتعريفه .. تتحول بالتالي إلى ضرب من
العبث.. وذلك نظرا لتماهيمه ذاك مع الذات العربية والإسلامية ، وهو
التماهي الذي لا يجعله يتحدد أمامها كموضوع .. إلا لكي يبرز في نفس
الوقت كذات مرتبطة و متظهرة بها ومن خلالها⁽³⁾.

إن هذا التداخل هو الذي يفسر ، إلى حد كبير ، فشل المثقفين العرب
والمسلمين في الاتفاق على تعريف للاستشراق.

فبين تعريف الإسلامي محمد البهي ، وغيره من الإسلاميين ، للاستشراق ،
الذي يطابق بينه وبين الاستعمار والتبشير⁽⁴⁾، و حصر اللييرالي إدوارد سعيد له
في "تدريس الشرق .. أو في الكتابة عنه .. أو البحث فيه"⁽⁵⁾، والماركسي
صادق جلال العظم الذي لم ير فيه سوى نتاجا للبرجوازية الأوربية في العصر
الحديث⁽⁶⁾، يظل الاستشراق ، وهو المتعدد في مفهومه ومضمونه و أهدافه ،

تعدد وتنوع مراحل التاريخية وأمكنته الجغرافية ، يبحث عن مثل ذلك التعريف .. الذي يلتقي عنده كل أولئك المثقفين العرب والمسلمين .
ولأن الاستشراق لم يكن ، تاريخيا أو جغرافيا ، واحدا فإننا نقول أنه إذا كان صحيحا أن جزءا كبيرا منه ومن ممثليه قد وجد ، خاصة منذ الحروب الصليبية ، إن لم يكن قبلها بكثير ، في الاستعمار الأوربي المباشر ، أو غير المباشر ، للعديد من الأقطار العربية والإسلامية ، دعما قويا بقدر ما وجد هذا الأخير كذلك دعما قويا من طرف مثل ذلك الاستشراق وأولئك المستشرقين ، فإن ذلك لا يجب أن يعني أن كل الاستشراق كان مدعما للاستعمار⁽⁷⁾ .

وفرنسا قبل عصر النهضة الأوربية ، و الذي لا علاقة له تذكر ، تماما مثل الاستشراق الذي يعرفه اليوم العالم العربي والإسلامي ، بالاستعمار أو بالتبني ، بل نذكر كذلك بمواقف العديد من المستشرقين الذين ناهضوا بالأمس ، وبشجاعة ، الاستعمار في شكله القديم ، و يعارضونه اليوم في يكفي أن نذكر هنا ، لا فقط ، بالاستشراق الذي عرفته الأندلس العربية الإسلامية وإيطاليا شكله الجديد وهي المناهضة التي وصلت بالبعض منهم لا إلى تبني قضايا العالم العربي والإسلامي فحسب ، بل إلى اعتناق دينه وإلى التمجيد العلني لرسوله (صلى الله عليه و سلم)⁽⁸⁾ .. ولكل رموزه الأخرى .

كما أن الاستشراق ليس مجرد تدريس للشرق ، أو مجرد الكتابة عنه أو البحث فيه ، فضلا عن أن يكون مثل ذلك التدريس و البحث حكرًا على البرجوازية الأوروبية دون غيرها من الطبقات الاجتماعية الأوروبية الأخرى⁽⁹⁾ ، بل إنه كذلك وفي الوقت ذاته " الكشف من طرف المثقفين الأوروبيين عامة الذين اتخذوا الشرق (معنى العالم العربي والإسلامي ، مشرقه و مغربه) ، كنموذج

لدراساتهم تلك ، عن مظاهر الحضارة الإسلامية وعن التراث العربي الإسلامي ، وذلك من خلال البحث عن النصوص المفقودة و جمعها و تحقيقها، ومن خلال ترميم المعالم الأثرية المندثرة و إعادة بنائها .. وصولاً إلى إخضاعها للدراسة المقارنة وإلى التعريف بها عالمياً بعد ذلك كجزء لا يتجزأ من التراث الإنساني⁽¹⁰⁾.

2- مضمون الاستشراق :

و على مستوى المضمون فإنه إذا كان المفكر الإسلامي أنور الجندي قد حصر ، مثل محمد البهي وغيره من الإسلاميين ، مضمون الاستشراق في التهجم على الإسلام و على نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- وذلك من خلال التحريف و الافتراء و الكذب على الإسلام و على نبيه⁽¹¹⁾، و إذا كان الليبرالي د. علي سامي النشار قد وجد في ذلك المضمون توطيداً لانتصار الغرب المنهزم .. وهزيمة الإسلام المنتصر⁽¹²⁾، فإن الماركسي د. طيب تيزيني قد اعتبره نتاجاً للقصور المعرفي النظري للمركزية الأوروبية (l'eurocentrisme) الغربية القائم على تضخيم أهمية حضارة الغرب على حساب الحضارات الأخرى وعلى رفض المفهوم العلمي الاجتماعي لوحدة الثقافة الإنسانية بالتالي⁽¹³⁾.

إن مثل هذه الأحكام الإطلاعية على مضمون الاستشراق حين تضع هذا المضمون في سلسلة واحدة ، دونما صراعات تذكر لاختلاف الأزمنة و الأمكنة، لا تلتقي ، عن وعي أو عن غير وعي ، مع طروحات دعاة التقاطع الكلي بين الشرق و الغرب (كيلينغ ت 1936 r kipling) .. إلا لكي تقصر ، عملياً ، دراسة الإسلام و حضارته على المسلمين فقط دون غيرهم ... و هي الدراسة التي نعلم

مدى هشاشتها و ضعف وزنها العلمي والعالمي بالنسبة للدراسات الاستشراقية
لنفس المواضيع .

لذلك فإن مثل هذه الأحكام الإطلاقيه لتؤكد بالتالي ، ودون أن تدرك،
تلك التهم الباطلة ضد الإسلام و ضد عدم قابليته للدراسة الموضوعية ، نتيجة لطبيعته
المنغلقة على ذاتها ، بل إنها تقفز كذلك فوق واحد من أهم شعارات الإسلام ...
وهو ذلك المنادي بضرورة الحوار مع الآخر ممثلا في كل أبناء الإنسانية أيا كانت
عقيدتهم أو جنسيتهم و دون أي أحكام مسبقة .

3- أهداف الاستشراق :

و لأن ذلك هو ، في نظر أولئك المثقفين العرب و المسلمين ، الاستشراق
تعريفا و مضمونا ، فإن أهدافه لا يمكن أن تكون بالتالي سوى " السيطرة على
الشعوب العربية و الإسلامية و الازدراء بها في المجالات الدولية"⁽¹⁴⁾. فمعرفة
الاستشراق والمستشرقين للإسلام و لحضارته و تراثه إنما تهدف أساسا لتفتيته ولعزله
عن التاريخ⁽¹⁵⁾. و ذلك من خلال تغطيته"⁽¹⁶⁾، و لتمرير و توطيد المصالح الحيوية
للعرواوية الأوربية داخل العالم العربي و الإسلامي؟! و ذلك عن طريق تلك
التغطية المعرفية و عن طريق المسح الأثروبولوجي كمقدمة لذلك⁽¹⁷⁾.

إن مثل هذه الأحكام الجديدة - القديمة على أهداف الاستشراق إذا كانت
لا تعبر، و كما سبق أن أشرنا، إلا عن جزء من هذا الأخير ، وليس عن كله⁽¹⁸⁾،
فإنها تؤكد ، في المقابل ، كل الجمود الذي تعيشه الذات العربية الإسلامية نتيجة
ليصورها المعرفي المحزن أمام حركية و إبداعية أولئك المستشرقين.

وآية ذلك أننا إن كنا أول من يسلم أن الاستشراق الذي لم يكن كله ،
وكما سبق أن أشرنا ، واحدا في مفهومه و في مضمونه ، لا يمكن أن يكون بالتالي
واحدا في أهدافه .

ذلك ما يؤكد على أي حال تقسيم البعض من الباحثين العرب اليوم ،
للاستشراق إلى استشراق تقليدي .. وجامد في أطروحاته و في أهدافه .. وإلى
استشراق جديد في أسلحته .. و في مضمونه و في أهدافه⁽¹⁹⁾.

صحيح أن هذا الاستشراق الجديد لم يتجاوز كثيرا النظرة الاستعمارية
المركزية الأوروبية التي ميزت الاستشراق القديم ، ولكنه أصبح منه كذلك أن مثل
تلك النظرة لا يجب البحث عنها في الاستشراق وحده ، بل يجب البحث عنها
كذلك ، و في الوقت ذاته ، في مجمل العلاقة أو العلاقات غير المتكافئة التي أصبحت
تحكم ، و منذ زمن ، الشرق الضعيف و التابع بالغرب الأوربي القوي و المتبوع .

وإذا كان البعض من المثقفين العرب والمسلمين قد حاول تفسير مثل تلك
العلاقة أو العلاقات الاستعمارية والتمركزية باستحالة مقاومة المستشرق لضغوط
أمته تارة⁽²⁰⁾، "و بصعوبة انفصال أي خطاب عن مبادئه " تارة أخرى⁽²¹⁾، فإن
ذلك لا يغير كثيرا من حقيقة تلك العلاقة أو العلاقات .

وإذا كان أولئك المثقفين قد دعوا بالتالي إلى " تجاوز الاستشراق من خلال
القطيعة الإبستيمولوجية أو المعرفية ، مع الفكر الأوربي الغربي"⁽²²⁾، ومن خلال
تحرير التاريخ والفكر العربي الإسلامي من " صندوق الشرور الأسطوري
الاستشراقي"⁽²³⁾ .. ومن سيخته المألحة ، الرجراجة والموبوءة .. وذلك باجتماع
جذوره⁽²⁴⁾، فإن مثل هذه المطالب تظل مستحيلة في غياب فكر عربي أصلي
قادر على الإنابة عن الاستشراق⁽²⁵⁾ .. وعن القيام بمهمته في مختلف الحقول التي

امتد إليها ، بل وعن تجاوزه من خلال طرح مشروع تجديدي كامل وشامل للذات العربية والإسلامية ولفكرها وتراثها كشرط لتجديد مختلف مناحي حياتها الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والعلمية .
وفي انتظار مثل تلك الإنابة العربية والإسلامية عن الاستشراق ، فإن هذه الخطابات الغربية العدائية له لن تكون سوى مطية لكل المزايدين على مسار ومصير هذه الأمة ..

إن هذه الحقائق وغيرها حول الاستشراق ، هي التي يبدو أن البعض من المثقفين العرب و المسلمين قد بدأوا يدركونها .. أخيرا ، ويشرعون بالتالي في العمل وفققتها

2- حسن حنفي أو حلم الاستغراب

في محاولة منه للخروج بالمثقف العربي والإسلامي من مثل هذه الدائرة السجالية المغلقة حول الاستشراق يأتي مشروع الدكتور حسن حنفي الداعي إلى تجاوز تلك الدائرة (المكررة لذاتها منذ قرون) ، وذلك من خلال طرحه لمشروعه الاستغرابي الهادف إلى تحويل الغرب الأوربي بدوره إلى موضوع للدراسة من طرف المثقفين العرب والمسلمين .

إن توقفنا عند هذا المشروع الذي تضمنه كتاب الموسوم ب : (مقدمة في علم الاستغراب)⁽²⁶⁾ أملاه تقديرنا و إعجابنا بهذا المفكر العربي الذي كرس حياته ، التي تجاوزت الآن الستين سنة⁽²⁷⁾ لتجديد فكر ووعي أمته العربية والإسلامية كشرط أولي و ضروري لتجديد مختلف مناحي حياتها الدينية منها والدينية ، السياسية منها والاقتصادية .

كما أن توقفنا بالنقد لمؤلفه ، بل لمشروعه التجديدي هذا و للقضايا التي يطرحها وللحلول التي يقترحها لها .. لا يجب أن يعني بالتالي أننا نقلل من قيمة هذا المشروع أو من جهود صاحبه ، بل أنه يعني فقط محاولة للفت نظر صاحبه إلى بعض النقاط التي بدت لنا أنها تهدد عملية تجسيده .

1 _ المشروع الاستغرابي الحنفي :

يرى حسن حنفي أن التراث الغربي الأوربي يمثل (الآخر) (إزاء (الأنا) العربي الإسلامي الذي لا يزال يعيش على تقليد ذلك الآخر باعتباره مصدر علمه وموضوعه⁽²⁷⁾ .

لذلك يطالب حسن حنفي بضرورة قلب هذا الوضع وذلك من خلال إبداع (الأنا) بدلا من تقليد الآخر .. وصولا إلى تحويله إلى موضوع للعلم بعد أن كان مصدره⁽²⁸⁾ .

(ولأن الاستغراب هو بالتالي الوجه الآخر للاستشراق ، فإن العلاقة فيه بين (الأنا) و (الآخر) إنما هي علاقة تضاد بالتالي و ليست علاقة تماثل⁽²⁹⁾ .
فالأنا العربي الإسلامي له بناء شعوري مختلف عن البناء الشعوري (للآخر)⁽³⁰⁾ ،
وحضارة الغرب نشأت بالطرد المستمر من المركز ، وهي بدون ماهية مسبقة⁽³¹⁾ .
لذلك يطغى عليها ، (خاصة علومها الاجتماعية والإنسانية) ، المنهج الماركسي .

(أما الحضارة الإسلامية فهي على العكس من ذلك تماما ، إنها حضارة مركزية ، ماهوية . ولأنها كذلك فإن وعيها ليس تاريخيا ، بل علمويا ، أي أن تاريخها تاريخ وعي من خلال علومها الدينية بالذات ، متمثلة أساسا في الفقه .. الأصول والكلام .. (و إلى حد ما في التصوف) ، (وهي العلوم التي يجب إعادة بنائها انطلاقا من الوحي ، لتحقيق مثل ذلك التجديد⁽³²⁾) ، وليس من

العلوم الاجتماعية أو الإنسانية الأوروبية الغربية⁽³³⁾ لقد حولت الحضارة الأوروبية الغربية ، نتيجة لطبيعتها الاستغلالية والعنصرية⁽³⁴⁾ ولتكوينها ، ثقافتنا العربية والإسلامية ، وغيرها من الثقافات غير الأوروبية الأخرى ، إلى وكالات لها ولايديولوجياتها الاشتراكية والماركسية والليبرالية والوجودية و البنوية) الخ⁽³⁵⁾ .
غير (أن الحضارة الأوروبية الغربية ليست ، وكما يزعم أصحابها ، الحضارة الإنسانية الأولى أو الوحيدة. فالحضارة بدأت قبل ذلك ، من الشرق و ستعود إليه مرة أخرى)⁽³⁶⁾ .

والحضارة الأوروبية حضارة مفرقة ، عكس ما يدعيه البعض من أبنائها ، لذلك فإن تاريخها و التأريخ لها يختلف عن تاريخ وعن تأريخ الحضارة العربية الإسلامية)⁽³⁷⁾ .

ذلك أن تاريخ (الأبنا) الإسلامي يتمثل ، فيما يرى حسن حنفي ، في ثلاثة مراحل لكل منها سبعمائة سنة .. وقد انتهت مرحلة الازدهار الأولى للحضارة الإسلامية ، كما انتهت مرحلة انحطاطها الثانية ، أو أوشكت ، وبدأت مرحلة ازدهارها من جديد⁽³⁸⁾ المعلن عن افتكاكها للمشعل من الحضارة الغربية الأوروبية التي تمثل الفلسفة الظاهرية نهايتها و نهاية العقل الأوربي الغربي الذي كونها⁽³⁹⁾ .

هكذا سيتحقق أقول الحضارة الأوروبية وصعود الحضارة الإسلامية وعالميتها.. من جديد ، وذلك من خلال إعادة إبداع (الأنا) انطلاقا من الوحي لا من العقل .. ومن تلك العلوم التي تولدت عنه (الفقه ، الأصول ، الكلام) و.. التصوف .
فالإسلام دين توحيد .. و الوحي يمثل المركز الثابت الذي نشأت حوله تلك العلوم و غيرها من العلوم الإسلامية التراثية الأخرى⁽⁴⁰⁾ .

و المهمة الأساسية و النهائية لهذه العلوم و للباحثين فيها تتمثل في تكوين أمة إسلامية .. (عربية) ناهضة لا تستطيع أمة أخرى أن تحتل أرضها أو تعتدي على كرامتها كما يحدث الآن بالنسبة للأمة العربية والإسلامية⁽⁴¹⁾ .

ويتم هذا الإنجاز الحضاري الجديد ، فيما يرى حسن حنفي ، لا من خلال الانتقال من جمال الدين الأفغاني إلى الحميني .. أو من خلال الانتقال من محمد عبده إلى جمال عبد الناصر ، بل من خلال الانتقال من كانط (E . kant) وهيغل (hegel) إلى فيخته (fichte) فيلسوف المقاومة ، و من شيلر (schiller) إلى دوستوفسكي (dostoievsky)⁽⁴²⁾ .

ذلك باختصار شديد ، هو المشروع الحنفي الاستغرابي ، وهو المشروع الذي أثار لدى المثقفين العرب الكثير من الأسئلة و من التساؤلات⁽⁴³⁾ . لذلك فإننا سنكتفي هنا بالتوقف عند اثنين منها فقط ، وهما المتعلقين: أولاً بمفهومه للاستغراب ، و ثانياً بالمنهج الذي طرحه لتجسيده .

1 - عن المفهوم الحنفي للاستغراب :

إننا لن نكرر هنا كل النقد الذي تعرض له مفهوم حسن هذا للاستغراب .. فقد كفانا عناء مثل هذه المهمة باحثون عرب⁽⁴⁴⁾ ، ولكننا سنعرض فقط لثلاثة نقاط أساسية أثارها ذلك المفهوم من بين ما أثار ..

أ- حين يطلق حسن حنفي على مشروعه هذا كلمة "علم" (مقدمة في علم الاستغراب) ، فإنه يقع في خلط بين مفهوم العلم بالنسبة للعلوم التجريبية وبين مفهومه بالنسبة للعلوم الاجتماعية و الإنسانية عامة ..

فالاستغراب ، مثل الاستشراق ، ليس علماً ، ولا يمكن أن يوصف بمثل تلك الصفة ، لأن الباحث والمبجوث فيه واحد : و هو الإنسان ، و هذا عكس

تلك العلوم التجريبية الأخرى ، حيث الباحث (الإنسان) شيء ، و موضوع بحثه شيء آخر .

ب - و حين يصف حسن حنفي مشروعه هذا ب (الجديد) أو (بالمحاولة الأولى في هذا الميدان) فإنه ينسى أو يتناسى محاولات مماثلة قام بها مفكرون عرب ومسلمون، وهذا ابتداء من ابن فضلان⁽⁴⁵⁾ و انتهاء بالدكتور محمد رحبان ، (و مرورا بكل من البيروني وابن خلدون ، الطهطاوي وخير الدين التونسي ، وغيرهم)، الذي طرح نفس المشروع الاستغرابي ، تقريبا ، على المؤتمر الإسلامي في "لاهور" سنة 1957 .

ج - و أخيرا ، وليس آخرا ، فإننا نود أن نذكر حسن حنفي أن الغرب قد درسنا من موقع قوة ، و نحن اليوم في موقع ضعف ، كما أن الغرب قد درسنا بعد أن تبلور مفهوم الذات و الهوية و الحرية عنده .. و هو ما لم يتحقق بعد بالنسبة إلينا ، نحن الذين لازلنا نبحث عن ذاتنا و عن هويتنا وسط أتون العشائرية و الجهوية .. و وسط أغلال التبعية و التخلف و الفقر و الجهل و الاستبداد السياسي ... الوطني.

ولأن ذلك هو حالنا فإن مشروع حسن حنفي الاستغرابي هذا ، المعتمد في تسدياته و مفاهيمه وطروحاته ومنهجيته على نفس الغرب الأوربي الذي يريد تحويله إلى موضوع لدراسته ، لا يفعل بالتالي سوى تقديم "استشراق معكوس"⁽⁴⁶⁾ يبقى فيه الغرب مصدر الاستشراق و مصدر الاستغراب فاعلا بالتالي في المرتين⁽⁴⁷⁾ في الذات العربية .

2- عن المنهجية الاستغرابية الحنفية :

و كما يأخذ حسن حنفي في مشروعه الاستغرابي هذا مصطلحاته ومفاهيمه عن الغرب الأوربي، فإنه يأخذ كذلك منهجيته منه .. و ليس من ذلك التراث الإسلامي الذي يشكل لديه منطلق الاستغراب وأداته.. وهدفه..

هكذا يتبين حسن حنفي الظواهرية (la phénoménologie) (هوسرل ت 1938. ED Husserl)، كمنهج لعلم الاستغراب، رافضا بذلك أي قطيعة إبستمولوجية مع الفكر الغربي و ذلك بحجة "أن تراث الآخر" نابع من تراث "الأنا" من جهة، و بأن الظواهرية تيار استشراقي روحي يعتمد أساسا، مثل التراث الإسلامي، على الوعي لا على العقل.. و بأن كل ما جاء بعدها إنما هو مجرد تطبيقات لها "من جهة أخرى..."

وإذا كنا نقر أن الظواهرية قد أثرت في تطور الفكر الأوربي المعاصر، فإنها لم تكن مع ذلك الفلسفة الوحيدة التي فعلت ذلك. فالبرغسونية (le bergsonisme) مثلا، كان لها نفس التأثير تقريبا على ذات الفكر الأوربي الغربي.

لكل ذلك و لغيره نقول :

I - إن اعتبار حسن حنفي للوعي كأساس وحيد للظواهرية يدحضه (هوسرل ذاته، الذي يؤكد (أن فلسفته، أو منهجه الفلسفي هذا، إنما جاء كرد فعل على أزمة الوجود الأوربي)، (وهي الأزمة التي لا يمكن أن تعرف، وكما يضيف، سوى هاتين: إما أقول أوربا والاعتراب نتيجة لتصورها الضيق للعلم.. وهو التصور الذي بلغني، و باسم الموضوعية، من مجاله الإنسان، أو إعادة إحياء

أوربا.. عن طريق إعادة إحياء الفلسفة بواسطة بطولة العقل المتجاوز لكل نزعة علمية طبيعية (48).

فهل وصل العرب و المسلمون إلى نفس التطور العلمي الأوربي الغربي حتى يلجأوا بدورهم إلى الظواهرية؟ وهل يمكن أن يكون العلم ، بمفهومه الأصولي عند حسن حنفي ، وأيا كان تطوره ، هو المقابل ، وكما يذهب ، لمفهوم ذلك العلم الأوربي ؟ (49).

2_ كذلك فإن حسن حنفي حينما يتخذ (الوعي الظواهرية الذي لا يحقق نزعته المتعالية. (transcendentale)، أو المفارقة ، إلا من خلال اختصاره للواقع (la reduction) و لمكوناته ، ووضعه للعالم الواقعي بين قوسين كأساس للتعامل مع التراث العربي الإسلامي ، الذي يشكل ، في نظره ، مادة و أداة الاستغراب) ، ينسى ، أو يتناسى ، أن مثل هذا الوعي الظواهرية يناقض ، بالرغم من طابعه القصدي (intentionnalité) روح الإسلام الذي يعطي الأولوية للواقع ، وليس للخيال، وللباطن و ليس للظاهر ، وللجماعة وليس للفرد ...

لذلك فإن حسن حنفي حينما يتخذ الظواهرية كمنهج له لدراسة الإسلام ولإعادة تحديد تراثه فإنه يناقض كلا من الإسلام و من الظواهرية على حد سواء .

3 - ثم كيف يسمح حسن حنفي لنفسه بتوظيف الوعي الظواهرية الأوربي في علمه الاستغرابي هذا وهو الذي يؤكد أن بناءه أو مكوناته مختلفة عن بناء ومكونات الإنسان الإسلامي ؟

و أخيرا ، و ليس آخرا ، كيف يتصور حسن حنفي تحقيق مثل تلك الثورة التجديدية الإسلامية من طرف الإنسان العربي و الإسلامي وهو الذي يؤكد أنه "لا تاريخ له لأنه منغلق في حاضر لا زمان له ولا ماضي أو لا مستقبل له كذلك ؟

وذلك نظرا لانعدام استقلال العقل (و ليس الوعي الذي يتحدث عنه في مشروعه هذا) ، والذي أدى إلى إسقاط التاريخ من وعيه (أي الإنسان العربي الإسلامي) وإلى تحويل دوره فيه (أي في التاريخ) إلى مجرد دور العابر له «(50)

إن هذه الملاحظات على مشروع حسن حنفي الاستغرابي لا تهدف ، بالرغم من طابعه الخيالي الذي يجعله لا يختلف في الوسائل و المضمون و الأهداف عن العديد من المشاريع التجديدية المنطلقة من الماضي وليس من الحاضر ، و تحدياته (و في مقدمتها المشاريع الإسلامية) .. إلى التقليل من جهود صاحبه أو إلى التشكيك في صدق انشغاله بهموم أمته العربية و الإسلامية ، بل أن هدفها الإسهام في إنجاحه .. من خلال لفت نظر صاحبه إلى بعض العقبات و التناقضات التي تجعل كل أمل لتجسيده بشكل الحالي هذا ... حلما لا يزيد ، مثلما تفعل اليوم العديد من المشاريع الماضوية ، تلك المموم إلا تفشيا و عمقا .

المراجع

- 1 — إبراهيم محمد محمود : (كيف ينظر المثقف العربي إلى الاستشراق ؟) ، مجلة المستقبل العربي ، العدد 7 ، 1990 .. وقد استفدنا من هذا البحث كثيرا ، خاصة في الجزء الأول منه .
- 2 — د/ عبد الله إبراهيم : المركزية الأوربية ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، لبنان ، 1997 .
- 3 — إبراهيم محمد محمود : كيف ينظر المثقف العربي ... ؟
- 3 — نفس المرجع .
- 4 — محمد البهي : (المبشرون و المستشرقون و موقفهم من الإسلام) ، مجلة الفكر العربي ، افريل 1982 .
- 5 — إدوارد السعيد : الاستشراق : المعرفة ، السلطة ، الإنشاء ، ترجمة عربية لكمان أبو ديب ، بيروت ، مؤسسة الأبحاث العربية ، الطبعة الثالثة ، 1981 ، ص 38 .
- 6 — صادق حلال العظم : الاستشراق و الاستشراق معكوسا ، دار الحدائق ، بيروت ، 1981 ، ص 9-10 .
- 7 — محمد العقيقي : المستشرقون ، دار المعارف ، القاهرة ، الجزء الأول ، الطبعة الرابعة ، 1980 ، ص 7 ، ص 158 إلى 467 .
- 8 — نفس المرجع السابق .
- 9 — نفس المرجع السابق .
- 10 — أنور الجندي : الفكر العربي المعاصر ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ، (ب . ت) ، ص 274 .

- 11 - د / علي سامي النشار : (الحركة الصليبية و أثرها على الاستشراق الغربي) ، الفكر العربي ، العدد 5 ، يناير 1983 ، ص 129 .
- 12 - د / طيب تيزيني : من التراث إلى الثورة ، دار دمشق ، 1978 ، الجزء الأول ، ص. 573 .
- 13 - محمد الهيبي : المبشرون و المستشرقون ..
- 14 - هشام حميم : أوروبا و الإسلام ، الترجمة العربية ، دار الحقيقة ، بيروت ، 1980 ، ص. 11 .
- 15 - إدوارد سعيد : الاستشراق : مرجع سابق ، ص. 28-30 .
- 16 - المرجع السابق .. و انظر أيضا كتابه الثاني : تغطية الإسلام ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ، لبنان ، 1983 . و كتابه المترجم إلى الفرنسية عن الإنجليزية 'CULTURE ET IMPERIALISME , LIB. FAYARD . LE MONDE DIPLOMATIQUE , PARIS , 2001 .
- 17 - المرجع السابق .
- 18 - سهيل فرح : " الاستشراق الروسي : نشأته و مراحل التاريخة " ، مجلة الفكر العربي ، 1983 ، العدد 5 .
- 19 - محمد وقيدى : " تطور الصياغة الإيديولوجية في الاستشراق " ، مجلة دراسات عربية ، 1982 ، العدد 7 .
- 20 - إدوارد سعيد : مرجع سابق . ص. 273 .
- 21 - جمال الدين بن الشيخ : " الاستشراق " ، مجلة الفكر العربي ، 1980 ، العدد 5 .
- 22 - إدوارد سعيد : مرجع سابق .
- 23 - برهان غليون : " تحرير التاريخ " ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، 1985 ، العدد 37 .
- 24 - إدوارد سعيد : مرجع سابق ، ص. 267 .
- 25 - جاك بيرك : (J. BERQUE) : " حوار مع جاك بيرك " ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، 1988 ، العددان 5 - 266 - د. حسن حنفي : مقدمة في علم الاستغراب ، الدار الفتية ، القاهرة ، 1991 ، الطبعة الأولى .
- 27 - المرجع السابق ، ص. 5 .
- 28 - المرجع السابق ، ص. 16 .
- 29 - المرجع السابق ، ص. 16 .
- 30 - المرجع السابق ، ص. 16-110 .
- 31 - المرجع السابق ، ص. 110 .
- 32 - المرجع السابق ، ص. 102 .
- 33 - المرجع السابق ، ص. 102-32-24 .
- 34 - المرجع السابق ، ص. 102-35 .
- 35 - المرجع السابق ، ص. 102-35 .
- 36 - المرجع السابق ، ص. 102-35 .
- 37 - المرجع السابق ، ص. 518 .
- 38 - المرجع السابق ، ص. 518 .
- 39 - المرجع السابق ، ص. 518 .
- 40 - المرجع السابق ، ص. 5-11 .
- 41 - المرجع السابق ، ص. 5-11 .

- 42 - المرجع السابق ، ص 5 - 11 .
- 43 - د. أحمد عطية : جدل الأنا و الآخر (صادر عن عدد من المفكرين العرب بمناسبة بلوغ د. حسن حنفي من الستين) ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1997 .
- 45 - أحمد ابن فضلان : رسالة في الروم ، نشرها مترجمة إلى الألمانية ، " فراهن " 1823 ، ثم نشرها وزارة الثقافة المصرية ، 1977 .
- 46 - د. أحمد عطية : جدل الأنا و الآخر (محمود أمين العالم) ، ص 161 .
- 47 - المرجع السابق : (د. يوسف زيدان) ، ص 147 .
- 48 - ed. HUSSERL : la crise de l'humanité européenne et la philosophie . traduction française . p. RICOEUR . paris . Aubier . 1987 .
- 49 - حسن حنفي : مقدمة في علم الاستعراف ، ص 173 - 182 .
- 50 - حسن حنفي : دراسات إسلامية (ماذا عاب مبحث الإنسان و التاريخ في تراثنا القديم ؟) ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1981 ، ص 393 - 456 .

